المعطيات الحضارية للإسلام ودور الإعلام في إبرازها

(*) قدمت هذه الورقة البحثية في «ندوة الحوار بين الإعلاميين والفكر الاقتصادي الإسلامي ومؤسساته» التي عقدتها مجموعة دلّة ـ البركة وبنك دبي الإسلامي في دبي بالإمارات في الفترة من ١٣ ـ ١٤ شعبان ١٤١٥ هـ الموافق ١٤ - ١٥ يناير ١٩٩٥ م.

يمر العالم اليوم بتحولات كبيرة لم تقتصر على ما أصاب أنساق العلاقات السياسية والإقتصادية بين تكتلاته المختلفة، بل تجاوزت ذلك إلى أنماط التفكير في المنظومات الحضارية التي تنتمي إليها وترتكز عليها تلك التكتلات. وقد نتج عن تلك التحولات الترويج للفكرة المبشّرة بانتصار النموذج الحضاري الغربي (الليبرالي) وسيادة القطب الممثل لهذا النموذج بوصفه محوراً لا بد أن تدور حوله عجلة الحياة.

فهل يمكننا التسليم بهذه المقولة التي تعني إعلان إفلاسنا الحضاري من جهة، وتعني، من جهة أخرى، مطالبتنا بالإلتحاق بركب الحضارة الغربية إن أردنا الخلاص والتقدم؟!

إن سيادة النموذج الحضاري الغربي وهيمنة قيمه في العديد من المجتمعات الانسانية المعاصرة ليست دليلاً على صحة ذلك النموذج أو سلامة قيمه وصلاحيتها للناس جميعاً. فالنموذج الغربي للحضارة يشكو أمراضاً قاتلة ويعاني من اختلالات جوهرية.

وتتعالى الآن في المجتمعات الغربية نفسها أصوات عديدة تنادي بفحص الأسس التي قامت عليها حضارة الغرب وتنتقد العديد من السلبيات التي تمخضت عنها. ولربما كان الفيلسوف الفرنسي (روجيه جارودي)

أكثر المفكرين الغربيين حدة وصرامة في نقد الحضارة الغربية عندما أعلن «انتحار» هذه الحضارة وقال: «لقد انتحرت الحضارة الغربية. والسبب الرئيسي لهذا التخاذل الانتحاري أنه خلال القرون الخمسة المنصرمة لم تُعد الحضارة الغربية إلحادية فحسب، بل أصبحت تتصف بالشرك، فالنمو والجنس والعنف والمال والقومية غدت غايات في ذاتها، وبتعبير آخر أصبحت آلهة مزيفة لهذه الحضارة»[1].

وليس هدفنا هنا أن نشخّص أمراض الحضارة الغربية ونعرض آراء منتقديها من المفكرين الغربيين أنفسهم، وإنما أردنا أن نشير إلى تهافت الزعم بأن الحضارة الغربية هي النموذج الأمثل للإنسان المعاصر، وأن قيمها ذات صلاحية كونية، وأن خلاص البشرية يكمن في الالتحاق بركب تلك الحضارة.

وفضلاً عن أن الزعم بـ «عالمية» النموذج الحضاري الغربي يتناقض مع تلك الدعوات المتعالية من بعض مفكري الغرب الناقدين لحضارتهم والمطالبين بالبحث عن بدائل حضارية أخرى، فضلاً عن ذلك فإن هذا الزعم ينمّ عن روح استعلاء تتقمص المروجين له تتفق مع نظرة راسخة في عقول كثير من الغربيين تؤمن بـ «مركزية» الغرب وتفوقه على الآخرين!

هل يملك الإسلام نموذجاً حضارياً؟

فماذا عن الإسلام؟ وهل يملك نموذجاً حضارياً يمكن أن يكون بديلاً عن النموذج الحضاري الغربي، أو يكون على الأقل خياراً متاحاً يلفت الأنظار إليه ويدعو الآخرين للتفكير فيه؟

لا ريب في أن الإسلام وفّر لأتباعه ومعتنقيه في الماضي الأسس

---

(١) انظر: د. توفيق الواعي: الإسلام في العقل العالمي (القاهرة: دار الوفاء، ١٤١٠ هـ/١٩٩٠ م)، ص ١٧٤.

والمقومات التي قادتهم إلى بناء حضارة إسلامية متميزة. فقد أحدث الدين نقلة بعيدة في حياة العرب تمثلت أساساً في تغيير القيم. وكان محور هذا التغيير ـ كما يقول المستشرق الدنمركي (جوستاف فون جرونيباوم) «هو تحديد هدف الحياة وغايتها» حيث أن الإسلام جعل قيمة أي إنجاز بشري مرتبطة بالحساب والجزاء في الدار الآخرة الباقية. «وقد ضمن ذلك استمرارية الحياة الانسانية بدون قطع أو تفتت. وهكذا يتوالى السير ويتصل العمل ولا تكون الحياة تتابعاً لتصرفات جزئية متقطعة منعزلة بعضها عن بعض».

ونسترسل قليلاً مع المستشرق الدنمركي وهو يشرح لنا المعطيات الحضارية للإسلام فيقول: «في ظل هذه القيم الأساسية يطرح الإسلام أسئلة جوهرية ثلاثة ويقدم إجابته عليها وهي: كيف تعيش حياة صحيحة؟ وكيف تفكر تفكيراً صحيحاً؟ وكيف تقيم نظاماً صحيحاً؟ ويضيف قائلاً: «لقد قدّم الإسلام أجوبة على هذه الأسئلة في التربية الصحيحة للفرد، والترتيب النسبي لمناشط الإنسان، وتحديد القصد والمجال بالنسبة لسلطة الحكم أو ممارسة القوة السياسية. وكذلك بنى الإسلام نظاماً للقيم يتناول الواجبات والحقوق في شتى مجالات السلوك الانساني، سواء السلوك الفردي أو السلوك الاجتماعي وعلاقات الفرد بقرابته أو بالجماعة كلها. وقد أدى ذلك إلى تقويم أية خبرات حضارية سابقة أو لاحقة في هذا الضوء بحيث تكون متجاوبة مع معايير الإسلام ومقاصده»[1].

ولم تكن ثمرات الحضارة التي أرسى دعائهما الإسلام في حياة المسلمين مقتصرة عليهم وحدهم، بل تجاوزت حدودهم وبلغ تأثيرها غيرهم. وهذه شهادة لشخصية غربية مرموقة هي ولي العهد البريطاني الأمير تشارلز

(١) راجع: د. محمد فتحي عثمان: القيم الحضارية في رسالة الإسلام، (جدة : الدار السعودية، ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢ م) ص ٤٢ ـ ٤٤.

في كلمته التي ألقاها في جامعة اكسفورد في شهر اكتوبر من العام ١٩٩٣ م حيث يقول: «إذا كان الغرب يسيىء فهم طبيعة الإسلام فلا يزال هناك جهل كبير حول ما تدين به حضارتنا وثقافتنا للعالم الإسلامي. إنه نقص نعانيه من دروس التاريخ الضيق الأفق الذي ورثناه. فالعالم الإسلامي في القرون الوسطى من آسيا الوسطى إلى شاطيء الأطلسي كان يعج بالعلماء ورجال العلم ولكن بما أننا رأينا في الإسلام عدواً للغرب وكثقافة غريبة بنظام حياتها ومجتمعها، فقد تجاهلنا تأثيره الكبير على تاريخنا. فلنأخذ ـ مثلاً ـ كيفية تقليلنا من أهمية ٨٠٠ سنة من التراث الإسلامي في اسبانيا بين القرنين ٨، ١٥ فلا مفر من الاعتراف بمساهمة اسبانيا المسلمة في الحفاظ على الدراسات الكلاسيكية في العصور المظلمة والانطلاقات الأولية لعصر النهضة. ولكن اسبانيا المسلمة كانت أكثر من مخزن للحضارة الأغريقية التي التهمها العالم الغربي المعاصر إذ لم تقتصر اسبانيا المسلمة على جمع وحفظ المحتوى الثقافي للمدنيتين الأغريقية الرومانية فحسب، ولكنها قامت بتفسيرهما والتوسع فيهما واسهمت من ناحيتها في الجهد البشري في عدة قطاعات في العلوم والفلك والرياضيات والجبر (وهي كلمة عربية بحد ذاتها) والقانون والتاريخ والطب وعلم المستحضرات الطبية والبصرية والزراعة والهندسة المعمارية والدين والموسيقى... لقد رعى الإسلام وحافظ على السعي وراء العلم والمعرفة... وفي القرن العاشر كانت قرطبة أكثر مدن أوربا حضارة».

ولا يكتفي الأمير البريطاني بهذا الاعتراف بفضل الحضارة الإسلامية على الغرب في مجالات العلوم فحسب، بل يضيف قائلاً: «وكثيرة هي السمات واللمسات التي تعتز بها أوربا الحالية التي هي فعلاً مقتبسة من اسبانيا المسلمة: الدبلوماسية والتجارة الحرة والحدود المفتوحة وأساليب

البحث الأكاديمية في علم أصل الإنسان، والأتيكيت والأزياء والأدوية البديلة والمستشفيات. فكل هذه وصلتنا من هذه المدنية العظيمة. وكان الإسلام في القرون الوسطى معروفاً بالحلم والتسامح عندما كان يسمح لليهود والمسيحيين بممارسة شعائرهم الدينية، واضعاً ذلك مثالاً، لم يتعلمه الغرب لسوء الحظ لعدة قرون. إن الأمر العجب هو وجود الإسلام في أوربا كجزء منها منذ أمد طويل، أولاً في اسبانيا ثم في البلقان، وكذلك مساهمته في حضارتنا التي كثيراً ما نعتقد خطأً بأنها حضارة غربية كلياً.

إن الإسلام جزء من ماضينا وحاضرنا في جميع ميادين الجهد البشري. لقد ساعد الإسلام على تكوين أوربا المعاصرة فهو جزء من تراثنا، وليس شيئاً مستقلاً بعيداً عنا»[1].

النموذج الإسلامي هل هو معاصر؟

وتعترضنا في سياق عرضنا لمعطيات الحضارة الإسلامية في ماضيها الزاهر وتأثيرها في سواها من الحضارات إشكالية جديرة بالتأمل يمكن أن نصوغها على هيئة سؤال يقول: هل الحضارة التي بناها الإسلام هي تراث من الماضي عفى عليه الزمن وجعله التطور البشري والتقني غير صالح للإنسان المعاصر؟ وبعبارة أخرى: هل المعطيات الحضارية للاسلام ذات طبيعة معاصرة؟ وهل في رسالة الإسلام وحضارته ما يمكن أن يقدمه للعالم اليوم؟

إن إبراز الطبيعة المعاصرة للعطاء الحضاري للاسلام يمثل جوهر التحدي الفكري الذي يواجه المؤمنين بضرورة بناء النموذج الحضاري

---

(١) راجع: الترجمة الكاملة للكلمة في جريدة «الشرق الأوسط» بعنوان «الإسلام والعالم الغربي» في العددين ٥٤٥٨ و٥٤٥٩ بتاريخ ٧، ٨ نوفمبر ١٩٩٣ م.

الإسلامي الذي يمثل بديلاً عن النموذج الحضاري الغربي بالنسبة للمسلمين وخياراً متاحاً مع النماذج الأخرى يمكن أن يستفيد منه الآخرون. وقد عبّر عن ذلك الأمير تشارلز مرة أخرى بقوله: «الإسلام يستطيع أن يعلمنا اليوم كيف نفهم وكيف نعيش في عالمنا المسيحي الذي يفتقر إلى المسيحية التي فقدها. فالإسلام في جوهره يحتفظ بنظرة مدمجة ويرفض أن يفصل بين الإنسان والطبيعة أو بين الدين والعلم أو بين العقل والمادة. كما حافظ على وجهة نظر ميتافيزقية موحدة للإنسان وللعالم الذي يحيط بنا»[1].

إنَّ إشارة الأمير تشارلز لعنصر التوحيد وعدم الفصل بين الروح والمادة والدين والعلم والإنسان والطبعية في النظرة الإسلامية إشارة ذكية وبالغة الدلالة فهي تحدد جوهر الداء الذي أصاب حضارة الغرب ألا وهو ذلك الانفصام التام بين هذه الثنائيات التي يتكون منها النسيج الحافظ للنموذج الحضاري والموجه له في شتى المجالات.

ويجلّي المفكر الإسلامي علي عزت بيجوفيتش - رئيس جمهورية البوسنة والهرسك - هذه الخاصية الفارقة للإسلام فيقول في كتابه القيم (الإسلام بين الشرق والغرب): «هناك فقط ثلاث وجهات من النظر متكاملة عن العالم هي: النظرة الدينية، والنظرة المادية، والنظرة الإسلامية (*) ويمكن إرجاع جميع الأيدولوجيات والفلسفات والتعاليم العقائدية من أقدم العصور إلى اليوم، في التحليل النهائي، إلى واحدة من هذه النظرات الثلاث العالمية الأساسية».

---

(١) المرجع السابق أيضاً.

(*) يستخدم بيجوفيتش كلمة «دين» للدلالة على المعنى الذي تنسبه أوربا إلى الدين، وهو أنه تجربة فردية خاصة لا تذهب أبعد من العلاقة الشخصية بالله. وعليه فلا يمكن تصنيف الإسلام كدين بهذا المعنى فالإسلام أكثر من دين لأنه يحتوي الدين والدنيا معاً.

ويشرح طبيعة كل نظرة من النظرات الثلاث قائلاً: «تأخذ الأولى (الدينية) فقط بدايتها وجود الروح، والثانية (المادية) وجود المادة، والثالثة (الإسلام) الوجود المتزامن للروح والمادة معاً. فلو كانت المادة وحدها هي الموجودة، فإن الفلسفة التي تترتب على ذلك هي الفلسفة المادية، وعلى عكس ذلك إذا وجدت الروح، فالإنسان بالتالي يكون موجوداً أيضاً. وحياة الإنسان تصبح بلا معنى بغير نوع من الدين والأخلاق. والإسلام هو الاسم الذي يطلق على الوحدة بين الروح والمادة. وهو الصيغة الأسمى للإنسان نفسه».

ومن هنا ينبهنا بيجوفيتش إلى ملاحظة لافتة للنظر حين يقرر أن الغرب ـ بشقيه الديني والمادي ـ لم يفهم رسالة الإسلام ولم يدرك طبيعته. إنه يقول «إن موقف الإسلام «الوسط» يمكن إدراكه من خلال حقيقة أن الإسلام كان دائماً موضع هجوم من الجانبين المتعارضين: الدين والعلم. فمن جانب الدين اتهم الإسلام بأنه أكثر لصوقاً بالطبيعة والواقع مما يجب، وأنه متكيف مع الحياة والدنيا. ومن جانب العلم أنه ينطوي على عناصر دينية وغيبية. وفي الحقيقة يوجد إسلام واحد فحسب، ولكن شأنه كشأن الإنسان له روح وجسم فجوانبه المتعارضة تتوقف على اختلاف وجهة النظر فالماديون لا يرون في الإسلام إلا أنه دين وغيب أي أنه ذو اتجاه «يميني» بينما يراه المسيحيون كحركة اجتماعية سياسية فقط أي أنه ذو اتجاه «يساري»!

ويواصل تأكيد هذه النقطة فيقول: «لقد أكد المتصوفة دائماً على الجوانب الدينية للإسلام فقط بينما أكد العقلانيون على الجانب الآخر. وكلا الفريقين معاً لم يكن طريقه مع الإسلام ميسراً، وذلك لحقيقة بسيطة هي أن الإسلام لا يمكن حبسه في تصنيف أحد الفريقين دون الآخر» ويرى بيجوفيتش أن الفهم الصوفي للإسلام يحجّمه في «صيغة دينية خالصة» وذلك من خلال استبعاد جميع المكونات المادية والعقلية

والاجتماعية منه. أما الفهم العقلاني للإسلام فهو يهمل الجانب الديني فيه وبذلك يهبط العقلانيون بالإسلام إلى «مجرد حركة سياسية، جاعلين منه نوعاً من القومية، أو ما يمكن أن يسمى قومية إسلامية محرومة من جوهرها الديني والأخلاقي، فارغة ومتساوية مع جميع القوميات الأخرى في هذا المجال»[1].

تحرير الإنسان وتكريمه

إنّ من الصعوبة بمكان أن نحيط في هذه الورقة بالمعطيات الحضارية التي يقدمها الإسلام للإنسان المعاصر. ولذلك فإننا سنكتفي في الصفحات التالية بالتعريج على بعض منها مما نحسب أنه أكثر أهمية لبلورة النموذج الحضاري الإسلامي وأقرب لصوقاً بواقعنا المعاصر.

ويمكننا تناول تلك المعطيات أو القيم الحضارية للإسلام ضمن ثلاث دوائر يكمل بعضها الآخر وهي تؤسس في مجموعها منظومة متكاملة لبناء النموذج الحضاري الإسلامي، وهذه الدوائر الثلاث هي: دائرة الإنسان ودائرة المجتمع ودائرة العالم.

إن أعلى القيم التي أرساها الإسلام: قيمة التوحيد بوصفها القاعدة الأساسية للإيمان. فالإسلام «يعطي مساحة واسعة لتوضيح صلة الإنسان بالخالق عز وجل من خلال التعريف به وصفاته وكيفية عبادته ودعائه، وتوجيه مشاعر الإنسان نحوه. وتتسم العلاقة (بينهما) بالحب والطاعة، خلافاً لمشاعر الأمم الأخرى التي اعتبرت نفسها في صراع مع الآلهة التي اخترعتها كاليونان حيث نازعوا آلهتهم للحصول على أسرار الطبيعة. ولا زالت وريثتهم «الحضارة الغربية» تعبر بـ «قهر الطبيعة» وبـ «موت الإله» في

(١) انظر: علي عزت بيجوفيتش: الإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة محمد يوسف عدس (الكويت: مجلة النور، ميونخ: مؤسسة بافاريا، ١٤١٤ هـ/١٩٩٤ م) ص ٢٧ ـ ٣٥.

أدبياتها عند كل إشارة إلى انتصار علمي أو تقدم فكري يحققه الإنسان»[1].

إن الإسلام يقرر وحدانية الله واستحقاقه وحده للعبادة والتوجه. وهذه العقيدة توفر للإنسان الطمأنينة والأمان عوضاً عن الخوف والتمزق الروحي ﴿ **الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾ كما أنها تربطه بمثل عليا وتطلعات سامقة وتعده بحياة دنيوية طيبة ﴿ **من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾.

وعقيدة التوحيد ـ فضلاً عن ذلك كله ـ تحرر الإنسان من الخضوع للآلهة الكاذبة التي تتسلط على حياته. ولذلك عندما نتساءل قائلين «في هذا العالم المكتظ بسلطات الآلهة الكاذبة المطلقة، هل يبقى أي دور لرسالة الإسلام التي رفعت شعار عدم ألوهية الإنسان، وأنه لا يستحق هذه المنزلة، وأن الله واحد وله الحكم والملك كله؟» يأتينا الجواب سريعاً من بيجوفيتش قائلاً: «إننا نرى أن هذا المبدأ الإسلامي الداعي إلى تحرير الإنسان من الآلهة الكاذبة سيظل مبدأ معاصراً لا يعفو عليه الزمن»[2].

ويكرم الإسلام الإنسان أيما تكريم إذ يعدّ هذا التكريم قيمة حضارية ثابتة تحتل مكانة بارزة في سلّم القيم الإسلامية. ﴿ **ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً** ﴾. ومن تكريم الإسلام للإنسان أن جعل الله الكون مسخراً له كما أسند إليه مهمة عمارة الكون بوصفه خليفة عن الله.

---

(١) د. أكرم ضياء العمري: قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي (الدوحة : وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٤١٤ هـ) ص ٥٦.

(٢) انظر علي عزت بيجوفيتش: «الإسلام والمعاصرة» في مجلة المجتمع الكويتية العدد ١١٢٨ بتاريخ ١٩٩٤/١٢/٦ م، ص ٤٢.

ولا يفرق الإسلام بين الناس بحسب ألوانهم وأعراقهم وأجناسهم وأزمانهم حيث يقرر القرآن هذه الحقيقة الخالدة بقوله: ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير** ﴾. وفي الوقت الذي أعلن الإسلام مبدأ المساواة بين البشر ونبذ التمييز العنصري قبل خمسة عشر قرناً تقريباً، لم تعلن أكثر الدول المعاصرة تقدماً، وهي أمريكا، القانون الذي يقرر الحقوق المدنية ومبدأ المساواة بين البيض والسود في الحياة العامة إلا سنة ١٩٦٥ م فقط. ولا يزال هذا القانون غير مجمع عليه إذ تعارضه شريحة معتبرة من الأمريكيين. ولا ننسى أن العلماء الألمان في الأربعينات من هذا القرن الميلادي كانوا يقدمون دلائل علمية تثبت عدم مساواة الناس. وننظر في عالمنا اليوم فنجد أن التفرقة والتمييز لا يقتصران على لون البشرة فقط، بل يظهران بعمق في التفرقة القومية والطبقية، وفي التمييز الفكري والسياسي.

ومن القيم الحضارية التي أرساها الإسلام ضمان الحقوق الأساسية للإنسان وعلى رأسها حرية الاعتقاد حيث ينص القرآن على أنه ﴿ **لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي** ﴾ ويشير مراد هوفمان في كتابه (الإسلام كبديل) إلى أن الشريعة الإسلامية تتضمن قوانين مختلفة تكفل توافر حقوق الإنسان «وبخاصة: حق الحياة ـ سلامة الجسد ـ المساواة في المعاملة ـ الملكية الخاصة ـ حرية الضمير ـ الزواج ـ سماع أقوال المدعي والمدعى عليه قانونياً ـ براءة المتهم حتى يثبت إدانته ـ لا عقاب بدون سابق إنذار ـ الحماية من التعذيب ـ حق اللجوء، وهذه كلها حقوق كفلها الإسلام قبل ألف وأربعمئة عام»[1].

(١) انظر: مراد هوفمان: الإسلام كبديل، ترجمة د. غريب محمد غريب (الكويت، مجلة النور، ميونخ: مؤسسة بافاريا، ١٤١٣ هـ/١٩٩٣ م)، ص ١٩١.

ويدعو الإسلام إلى العلم ويعلي من شأنه على نحو فريد لا تجده في أي دين آخر. فطلب العلم فريضة والمسلم يدعو ربه قائلاً ﴿ **وقل ربّ زدني علماً** ﴾ والعلم الذي يفرضه الإسلام ـ كما يقول سيد سابق ـ «هو الوحي كتاباً وسنة، عقيدة وشريعة. وما وراء ذلك من العلوم الكونية فهو مما يدعو إليه الإسلام ويحثّ عليه لتعرف سنن الله في الكون وأسراره في الخلق وحكمته في الوجود. ودراسة العلوم الكونية والإنسانية لا تقل أهميتها عن دراسة العلوم الشرعية»[1]. لذلك ليس عجيباً أن يشيد المستشرق (ر. نيكلسون) بالنشاط العلمي للمسلمين في عصور الإزدهار الحضاري قائلاً: «لقد لاح بأن الناس في العالم الإسلامي كله ابتداءاً من الخليفة إلى أقل المواطنين قد أصبحوا طلاباً للعلم، أو على الأقل مناصرين له. وكان الناس لأجل طلب العلم يسافرون عبر قارات ثلاث، ثم يعودون إلى بلادهم وكأنهم نحل تشبّع بالعسل، ليفضوا بما جمعوا من محصول ثمين إلى حشود من الطلاب المتشوقين للعلم، وليؤلفوا بهمّة عظيمة الأعمال التي تتصف بالدقة وسعة الأفق»[2].

ولكن العلم في المنظور الحضاري الإسلامي مرتبط بغاية سامية تشده وتضبطه لئلا ينحرف عن مساره وينقلب إلى سلاح يؤذي الإنسان ويدمر المجتمع. ولذلك ينتقد جارودي المفهوم الغربي للعلم الذي يقوم على انفصال العلم عن الحكمة أو عن التفكير في الغاية، «أو عن الإيمان الذي يمنحه تبيّن حدوده ومبادئه الأساسية وقيمه المطلقة. الإيمان الذي يضعه في خدمة تحرير الجنس البشري وتحقيق ذاته، بديلاً عن إخضاع الإنسانية وتدميرها» ويرى جارودي أن العلم الغربي المنفصل عن غاياته

---

(١) سيد سابق: عناصر القوة في الإسلام (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٧٣ م)، ص ٨٠.
(٢) إسماعيل مظهر: مآثر العرب على الحضارة الأوربية، نقلاً عن توفيق الواعي: مرجع سابق، ص ٣٩.

انتهى «إلى أن يتجاهل وجود أيّ من الأشياء التي لا تُرى أو لا تقاس كالحب والجمال والإيمان»[1].

بناء المجتمع الراشد

وتتمثل المعطيات الحضارية للإسلام في دائرة الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في القيم والقواعد العديدة التي جاء بها وقررها لتنظيم حركة تلك الحياة في مختلف مجالاتها. فالعدل غاية عليا من الغايات التي يسعى النظام الإسلامي إلى تحقيقها ﴿ **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط** ﴾ ولهذا العدل صور متعددة في مجالات الحكم والقضاء والتعامل الإنساني وغير ذلك.

ولكن العدل الاجتماعي واضح القسمات ظاهر البروز في توجيهات الإسلام في المجال الاقتصادي، حيث الموازنة بين مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع. ويقوم النظام الاقتصادي الإسلامي أساساً على ضمان الملكية الفردية لما اكتسبه الإنسان بطرقٍ مشروعة وحفظها من السرقة والاختلاس أو المصادرة والتعدي. ولكنها ملكية مرتبطة بالأساس الإيماني الأول وهو الإقرار بأن المالك الحقيقي للمال هو الله تعالى، وإن الإنسان خليفة له في المال وإن بقاء هذا المال معه مرهون بحسن تصرفه فيه ﴿ **آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه** ﴾.

ووضع الإسلام قواعد محكمة للتملك الفردي وتنمية الثروة واستغلالها وانفاقها حتى يحقق التوازن الاجتماعي والعدالة، كما فرض مجموعة من الواجبات المالية على الفرد تحقيقاً للتكامل الاجتماعي والقضاء على الأثرة والأنانية. ويأتي على رأس هذه الواجبات الزكاة وهي حق لله على كل مسلم قادر.

---

(١) نقلاً عن توفيق الواعي: مرجع سابق، ص ١٧٥.

وكان أسلوب الإسلام في الدعوة إلى العلم أسلوباً متميزاً فغاية الحياة في نظر الإسلام هي إحسان العمل وإتقانه وإظهار المواهب وإبراز القوة الكامنة في النفس الإنسانية: ﴿ **تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير. الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً** ﴾.

والعمل المطلوب إسلامياً هو العمل الصالح الذي تزكو به النفوس وتتوسع بسببه دوائر البر وتقوى عن طريقه العلاقات الإنسانية. إنه العمل الذي ينمي الإنتاج ويزيد الثروة ويحفظ كرامات الأفراد ويصل بالأمة إلى غايتها من السيادة والسعادة. ولذلك يحض الإسلام على التمتع بالطيبات من الرزق ويمنع تطليق الدنيا لأن ذلك يعطل النشاط الإنساني، فالدنيا هي مزرعة الآخرة[1].

ونظم الإسلام للمجتمع قواعد أخلاقية توفر له سياجاً متيناً يحفظه من الإنحرافات ويقيه من المهلكات ويعالج له ما قد يعتريه من مشكلات. وقد بُني هذا الأساس الأخلاقي لرسالة الإسلام الحضارية من خلال بعدين إثنين متوازنين هما البعد الداخلي، والبعد الخارجي. فالاسلام لا يعتمد في فرض نظامه وقانونه على السلطة الخارجية المتمثلة في العقوبة والجزاء المادي فحسب، بل إنه يعتمد ـ أولاً ـ على تربية النفس الإنسانية بتعميق معاني الخير فيها وتنفيرها من معاني الشر والفساد. كما يعتمد على ربط الإنسان بالله تعالى وإيقاظ ضميره وتذكيره بالجزاء الأخروي دائماً.

ولا عجب أن يفتقر النموذج الحضاري المادي ـ وبخاصة في الغرب ـ إلى البعد الداخلي في معالجة قضايا الإنسان المعاصر، فهذا الروائي الروسي الشهير (الكسندر سولجنتسين) يعبر عن ذلك بقوله: «لقد عشت طول عمري تحت نظام حكم يفتقر إلى العدالة الموضوعية ـ النظام الشيوعي ـ

(١) انظر: عبد القادر طاش: «مقومات الحضارة بين الإسلام والنظم المعاصرة» مجلة المنهل، العدد ٥٣/٤١٥ جمادي الآخرة، ١٤٠٧ هـ، ص ١٠٢ ـ ١١٠.

واعرف كم هو فظيع ذلك! ولكن المجتمع الذي لا يملك أي معايير أو مقاييس أخرى غير القانون الوضعي ولا يردعه عن الشر سوى يد القانون الباطشة وحدها فهو أيضاً ـ وبالقدر نفسه ـ مجتمع تحتقر فيه قيمة الإنسان... إن يد القانون مهما كانت طائلة فهي باردة ذات طابع رسمي جامد، ولا يمكن أن يكون لها تأثير حقيقي في مناهضة الجريمة والشر. وإذا كانت علاقات الناس نسجاً لا تربطه إلا خيوط قانونية تولّد جوّ من الإنحطاط الأدبي والخلقي يشمل أنبل ما في الإنسان»[1].

ولا نبالغ أو نطلق الزعم على عواهنه إذا قلنا إنّ في القيم الحضارية للإسلام علاجاً ناجعاً للكثير من المشكلات الاجتماعية الخطيرة التي تعاني منها المجتمعات الإنسانية المعاصرة. ولنأخذ مثلاً مشكلة المسكرات والمخدرات حيث تستهلك دولة واحدة، هي فرنسا، أكثر من ملياري لتر من الخمر، وتنتج مصانع الخمور فيها أكثر من ٥٠٠ نوع منها وهناك ما يسمى بـ «ثقافة شرب الخمر» ومن علامات رقي طبقة الإنسان أن يعرف ـ أو يتظاهر بمعرفة ـ أكبر عدد من أسماء الخمور وأن يتذوقها ويكون له رأي شخصي في طعمها ويشعر بالفروق الدقيقة في نكهتها.

ومن المفارقات المؤلمة أن الإنسان المعاصر الذي يطور صناعة الخمور ويزيد من إنتاجها من جهة، يقوم من جهة أخرى بتطبيق الأساليب العلمية بدقة بالغة لإثبات أضرار الخمور ويحذر من خطرها! وقد يصادف الواحد منا أن تقع عينه على إعلانٍ دعائي لنوع من أنواع الخمور في صحيفة معاصرة ويقرأ في الصفحة التالية من الصحيفة نفسها أرقاماً مخيفة عن زيادة أعداد مدمني الخمور وأعداد المعاقين من جراء تناولها، أو معلومات مؤكدة أن ٥٠٪ من الجرائم وحوادث المرور ناتجة عن تعاطي

---

(١) نقلاً عن: د. محمد الشوش: «الحضارة المادية المعاصرة وتدهور الإنسانية»، مجلة الدوحة (قطر) العدد ٣٢ اغسطس ١٩٧٨ م، ص ١٣.

الخمور! أليس في الإسلام علاج جذري وحاسم لهذه المشكلة المدمرة؟!.

التعامل مع العالم بالتسامح والتفاعل

لقد حدّد الإسلام في نموذجه الحضاري قواعد متينة للتعامل مع العالم الآخر المختلف معه عقيدة وثقافة. فهو يرسي ـ بادئ ذي بدء ـ مبدأ التعايش السلمي بين الشعوب والأمم على الكوكب الأرضي. من منطلق أن الله خلق الناس مختلفين ﴿ **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون** ﴾.

ويطالب الإسلام أتباعه بصيانة حقوق الأقليات غير المسلمة في المجتمع الإسلامي وعدم انتهاكها لمجرد الاختلاف الديني معهم. ولذلك عاشت هذه الأقليات في المجتمع الإسلامي بعيدة عن الاضطهاد الديني أو العدوان الاجتماعي.

ولم يكتف الإسلام في نموذجه الحضاري بالإقرار العام بالمساواة بين البشر، وصيانة حقوق الأقليات غير المسلمة في المجتمع الإسلامي بل أصّل في نفوس أتباعه مبدأ الانفتاح على الحضارات الأخرى والاستفادة من ثمرات العلوم والمعارف والتجارب الإنسانية السابقة منها واللاحقة. ويوضح الدكتور عماد الدين خليل هذه الخاصية الإسلامية الفريدة فيذكر أن الفعل الحضاري الإسلامي امتد «لكي يغطي اتجاهات ثلاثة انضفرت في نهاية الأمر لكي تعزّز الوجود الحضاري الإسلامي وتغنيه من جهة، ولكي ترفد مجرى الحضارات البشرية بالعطاء المتنوع الواحد من جهة أخرى»[1].

---

(١) د. عماد الدين خليل: حول تشكيل العقل المسلم (هيرندن: أمريكا: العهد العالمي للفكر الإسلامي، ط ٤ ١٤١٢ هـ/١٩٩١ م، ص ٨١)

وأولى تلك الاتجاهات الثلاثة تتمثل في احترام الحضارة الإسلامية للتراث الحضاري البشري الذي سبقها وعاصرها... فلقد صاغت العقيدة العقل الإسلامي على الانفتاح المرن على كل حضارة، أو إنجاز ما دام أنه قد يتضمن جانباً من الحكمة التي يتحرق العقل باحثاً عنها، ولذلك «لم يكن هذا العقل يرفض معطيات «غيره» ولكنه في الوقت نفسه لم يكن يتقبلها بالكلية، ولقد كان يملك في تركيبه الخاص، ومن خلال منظوره العقيدي، المقاييس الدقيقة والموازين العادلة التي يمرر من خلالها تلك المعطيات، فيعرف جيداً ما يأخذ، ويعرف جيداً ما يدع. إنه كان يمارس عملية بناء الذات الحضارية، مستفيداً إلى أقصى حد من خبرات الآخرين»[1].

ويرى الدكتور عماد الدين خليل أن العقل المسلم لم يقف عند حدّ النقل والاستفادة بل اتجه بعد ذلك إلى «الإضافة والتجديد والاغناء وإعادة التركيب لمعطيات حضارية كانت بأمس الحاجة للتغيير والتبديل وتوسيع نطاق البناء، بعد إذ لم تعد صالحة تماماً لحاجات العصر الجديد ومطالب الإنسان المؤمن الجديد» وبذلك أبدع العقل المسلم، ابتداءً، «قيماً جديدة، وابتكر واكتشف الكثير الكثير من المعطيات والنظم الحضارية التي كانت بمثابة الأسس التي نبتت عليها فيما بعد حضارات أخرى في مشارق الأرض ومغاربها»[2].

أما الاتجاه الثالث من اتجاهات التسامح والتفاعل مع الحضارات الأخرى فيصفه الدكتور خليل بـ «النقل الجغرافي والانتشار» ويقول «إذا كانت الحضارة الإسلامية في الأولى قد مارست إنفتاحاً عقلانياً على تراث الحضارات السابقة، وإذا كانت في الثانية قد حوّرت فيها وفسّرت

(١) المرجع السابق: ص ٨١ ـ ٨٢.
(٢) المرجع السابق، ص ٩٠ ـ ٩١.

وشرحت وأضافت وابتكرت وأغنت، فإنها ها هنا تمارس انفتاحاً إنسانياً، يتجاوز تقاليد الإنغلاق على الذات ويرفض الأنانية والاستعلاء. لقد فتح المسلمون صدورهم لكل طالب علم، أياً كانت الجهة التي قدم منها وفتحوا أبوابهم ونوافذهم على مصاريعها لكي يخرج منها الضوء الجديد فيغطي قارات العالم ويلفها بالنور» ولذلك يكفي العقل الذي أنتجه النموذج الحضاري الإسلامي فخراً أنه كان «عقلاً إنسانياً» يعمل من أجل الإنسان أياً كان موقعه في الزمان والمكان، كما علمته عقيدته أن يعمل»[1].

هذه هي أبرز المعطيات الحضارية التي جاء بها الإسلام لصياغة عقل «الإنسان» وروحه ونفسه، ولإرساء قواعد «المجتمع» وتنظيم العلاقات بين أفراده، ولتلبية حاجة الناس في هذا «العالم» للتعايش بين بعضهم وبعض وللتلاقح والتفاعل بين ثقافاتهم وتجاربهم في سبيل تحقيق المصالح الإنسانية المشتركة.

دور وسائل الإعلام

إن ترجمة رغبتنا ـ نحن المسلمين ـ في استئناف مسيرة حضارتنا الراشدة إلى واقع ملموس تتطلب منا أولاً العمل الجاد والسعي الدؤوب في سبيل تجلية معالم النموذج الحضاري الإسلامي وإبراز معطياته في نسيجنا الفكري وفي حياتنا العملية. وليس من الإدعاء الأجوف أن نقول إنَّ الإسلام الذي صنع حضارة سامقة في الماضي قادر اليوم على أن ينشيء حضارة معاصرة تنتشل الإنسان من الإنحدار وتنقذه من الضياع وتدفعه نحو عمارة الكون وفق الهدي الربّاني الذي يحقق له سعادة الدنيا ونعيم الآخرة.

---

(١) المرجع السابق: ص ١٠٤، ١٠٦.

ولوسائل الإعلام الجماهيرية دور فاعل ومؤثر في المساهمة في الوصول إلى هذا الهدف النبيل فقد غدت تلك الوسائل بمثابة «الجهاز العصبي» للمجتمعات المعاصرة. ويتعاظم خطرها يوماً بعد يوم بما وفرته التطورات التقنية المتدافعة لها من إمكانات هائلة وقدرات واسعة للانتشار والتأثير. إن وسائل الإعلام الجماهيرية ـ من صحافة وإذاعة وتلفزيون ـ تستطيع ـ إذا ما أحسن توظيفها واستثمار امكاناتها ـ أن تقوم بتجلية معالم النموذج الحضاري الإسلامي وتبيان معطياته العديدة عبر إتقانها لوظائفها الاجتماعية المنوطة بها. وهذا ـ لا ريب ـ يحتاج إلى وعي بصير بالمهمة والأهداف، ورسم سليم للخطط والسياسات وتنفيذ متقن للبرامج والأعمال. ولا بد من إنطلاق ذلك كله من رؤية استراتيجية شاملة ومتكاملة يشترك في صياغتها قادة الفكر والرأي وصانعو القرار السياسي وعلماء التربية والاجتماع وخبراء الإعلام.

ولقد تجاوزت وسائل الإعلام الجماهيرية في أيامنا هذه ـ بما أتيح لها من إمكانات تقنية متطورة، وبما اكتسبته من أهمية في حياة الناس ـ ما تعارف عليه باحثو الاتصال من وظائف تقليدية لتلك الوسائل. فقد حدد (لاسويل) في أواخر الأربعينيات من هذا القرن الميلادي ثلاث وظائف للإعلام هي: القيام بمراقبة البيئة المحيطة، والعمل على ترابط أجزاء المجتمع ووحدته في مواجهة البيئة، والاهتمام بنقل التراث الثقافي عبر الأجيال المتتالية[1].

وتوالت على تلك الوظائف الإضافات اللاحقة التي أسهم بها باحثون آخرون مثل (رايت) الذي أضاف وظيفة التسلية أو الترفيه، ومثل (ديفيتو) الذي أورد وظائف أخرى كالتعزيز والمساندة والتعليم، ومثل

(١) راجع: دينس مكويل: الإعلام وتأثيراته: دراسات في بناء النظرية الإعلامية، تعريب د. عثمان العربي (الرياض: المعرب نفسه ١٤١٢ هـ/١٩٩٢)، ص ٥١.

(شرام) الذي رأى أن الوسيلة الإعلامية يمكن اعتبارها «مروجاً بارعاً للسلع والخدمات التجارية بيننا كأفراد» مشيراً بذلك إلى الوظيفة الإعلانية. ويؤكد هذا التطور المتواصل لوظائف الإعلام في المجتمعات الحديثة أن الوسيلة الإعلامية غدت اليوم «مؤسسة اجتماعية تمارس دوراً كاملاً في حياة أفراد المجتمع مثل بقية المؤسسات الاجتماعية الأخرى»[1]. وفي ظل هذه الوظائف العديدة والمتنامية لوسائل الإعلام الجماهيرية يتعاظم تأثير هذه الوسائل ـ بوصفها مؤسسة اجتماعية فاعلة ـ على الأفراد والجماعات. ولذلك استحوذ الجدل حول تأثيرات وسائل الإعلام على اهتمام قطاع واسع من الباحثين الإعلاميين. لقد بدأت أبحاث التأثير بما يسمى بـ«نظرية الحقنة» أو «نظرية الرصاصة» في أواخر الثلاثينات من هذا القرن الميلادي. ولكنّ الطابع التبسيطي لهذه النظرة دفعت كثيراً من الباحثين إلى رفضها والاندفاع نحو البحث عن تفسيرات أخرى أشد تعقيداً وأكثر قرباً من الواقع الفعلي. وبذلك شهدت ساحة البحث الإعلامي في التأثير نظريات عديدة مثل: نظرية التأثير التراكمي بعيد المدى، ونظرية التطعيم والتلقيح، ونظرية التأثير على مرحلتين أو خطوتين، ونظرية تحديد الأولويات أو جدولة الاهتمامات، ونظرية حراس البوابة، ونظرية الاستخدامات والإشباع وغيرها[2].

ودون الخوض في تعقيدات التنظير الإعلامي يمكننا اختيار ثلاث مهمات للتوظيف والتأثير الإعلامي لمعرفة مدى ما يمكن أن تسهم به وسائل الإعلام في مجال إبراز وترسيخ المعطيات الحضارية للإسلام في

---

(١) د. عبد الله الطويرقي: علم الاتصال المعاصر (جدة: مكتبة دار زهران، ١٤١٣ هـ/١٩٩٣ م)، ص ٢٠٤.

(٢) يمكن الإلمام بملخص مكثف للكثير من النظريات والدراسات المتعلقة بتأثير وسائل الإعلام في كتاب: د. محمد الحضيف: كيف تؤثر وسائل الإعلام؟ دراسة في النظريات والأساليب (الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤١٥ هـ/١٩٩٤ م).

المجتمعات المسلمة وخارجها. وهذه المهمات هي:

أولاً : مهمة تشكيل الوعي المرتبطة بعمليات صناعة الرأي العام.

ثانياً: مهمة التنشئة الاجتماعية أو التطبيع الاجتماعي المرتبطة بعمليات التعزيز والتعليم وتغيير المواقف وبلورة السلوكيات بين أفراد المجتمع وبخاصة الأطفال والناشئة منهم.

ثالثاً: مهمة التبليغ والاتصال الإنساني التي تستهدف إبلاغ رسالة الإسلام للآخرين وتوضيح صورته الحقيقية ورد الغارات الموجهة ضده.

مهمة تشكيل الوعي

ونبدأ حديثنا عن هذه المهمة بالتأكيد أولاً على أن وسائل الإعلام الجماهيرية تقوم بدور متعاظم في مجتمعاتنا المعاصرة في صياغة تصوراتنا الذهنية عن القيم والأفكار والأشخاص والأشياء. وكان الصحفي الأمريكي (وولتر ليبمان) قد ذكر في كتابه المشهور (الرأي العام) الذي نشر عام ١٩٢٢ م أن العالم الذي نعيش فيه لا يمكن الإحاطة به كله مباشرة عن طريق حواسنا المعروفة. ولذلك يحتاج الإنسان إلى استكشاف هذا العالم عن طريق التصوّر. وقال (ليبمان) إن الصورة الذهنية التي تتكون عن العالم الخارجي لدى الإنسان ما هي إلا تمثيل مبسط لبيئة غير حقيقية وينتج ذلك بسبب ضيق الزمن الذي يمتلكه الإنسان ومحدودية الفرصة المتاحة له للتعرف الشخصي المباشر على حقائق العالم من حوله.

ولذلك يمكننا القول إن الإنسان يعيش في عالمين مختلفين، أحدهما عالم قريب ولكنه صغير ومحدود، هو محيطه المباشر الذي يستقي معلوماته عنه بنفسه مباشرة عن طريق حواسه التقليدية. أما العالم الآخر فهو عالم بعيد، ولكنه الأوسع والأرحب، وهو ما لا يستطيع

إدراكه مباشرة عن طريق الحواس فيلجأ إلى استقاء معلوماته عنه بوساطة وسائل النقل والاتصال والتفاعل الاجتماعي. وقد سمّى الباحث (هاياكاوا) هذا العالم بـ «العالم المنقول» «Reported World » في مقابل العالم المحسوس من قبل الإنسان مباشرة. وتتكون الصورة الذهنية لهذا العالم المنقول في مدى زمني يمتد عبر مراحل نمو الإنسان وتطوره[1].

وإذا نظرنا إلى الواقع الذي نعيشه فيما يتعلق بتكوين الصور الذهنية وهو ما نعنيه بتشكيل الوعي يزداد يقيننا في أن وسائل الإعلام الجماهيرية تضطلع بدور رئيسي فاعل وواسع النطاق في إمداد الإنسان بكثير من التصورات والمعلومات والمواقف والاتجاهات التي تشكل في مجملها وعيه بالقضايا والموضوعات التي تهمه وتؤثر في حياته الفردية والاجتماعية.

ولا نبالغ عندما نتفق مع الدكتور تركي الحمد الذي يصف إنسان هذا العصر بأنه قد أصبح «كائناً إعلامياً» بمعنى أن المعلومة وما يترتب عليها أصبحت من الحاجات الأساسية لإنسان هذا العصر بحيث أصبح لا يستطيع أن يفكر، وبالتالي أن يسلك، دون أن تكون لديه مثل هذه المعلومة. ومن هنا تنبع أهمية معرفة من يملك المعلومة، وكيف يوصلها. لأننا بهذه المعرفة نستطيع أن نعرف ليس مجرد السلوك المترتب عليها فقط، ولكن كيفية توجيه الرأي العام والمجتمع بصفة عامة نحو أهداف وغايات معينة»[2].

إن تضمين المعطيات الحضارية للإسلام من قيم واتجاهات

---

(١) انظر: عبد القادر طاش: صورة الإسلام في الإعلام الغربي (القاهرة: الزهراء للإعلام الغربي)، ط ٢، ١٤١٤ هـ/١٩٩٣ م، ص ٢٤، ٢٥.

(٢) د. تركي الحمد: «الإعلام والثقافة في منطقة الخليج: «الكائن والممكن» جريدة «الشرق الأوسط» العدد ٥٨٦٩ بتاريخ ٩٤/١٢/٢٣ ص ١٧.

وسلوكيات ـ إضافة إلى التراث الثقافي والتاريخي الذي تختزنه ذاكرة الأمة ـ في رسائل إعلامية هادفة ومتقنة وبلورتها جميعاً في مواد صحفية متنوعة وبرامج إذاعية وتلفزيونية مشوقة وفق رؤية حضارية واسعة كفيل بتنمية وعي جماهيري متماسك وقوي يسهم في بناء الأمة على هدي النموذج الحضاري الإسلامي المنشود.

وتنبع أهمية هذا التوظيف الفعال لوسائل الإعلام الجماهيرية في تشكيل وعي الأمة ـ بنخبتها وجماهيرها ـ بالمعطيات الحضارية للإسلام وإقناعها بقدرة النموذج الحضاري الإسلامي على صياغة مجتمع عصري راشد، وكذلك قدرة هذا النموذج على الاسهام في معالجة العديد من القضايا والمشكلات التي تعاني منها الإنسانية في وقتها الراهن. إنّ تلك الأهمية تنبع من أمور عدة، تأتي في مقدمتها الهجمة المتوالية التي شنّتها ـ ولا تزال ـ كثير من وسائل التأثير الغربي من فكرية وسياسية وإعلامية على الإسلام فيما يشبه الحملة المنظمة التي تستهدف تخذيل المسلمين عن التمسك بدينهم وإبعادهم عن البحث في النموذج الإسلامي عن خلاص لهم. وقد نتج عن تلك الصورة الكريهة التي رسمها الأعداء للإسلام، والتي تركزت على وصفه بالتخلف والرجعية ووصمه بالإرهاب والعنف، أن فقد كثير من المسلمين الثقة بالنموذج الحضاري الإسلامي، وتلوثت أذهانهم بالدعايات المغرضة ضده إلى حدّ الاقتناع بعدم صلاحيته لقيادة حياتهم المعاصرة.

ومن جهة أخرى نجحت حملات التغريب الثقافي والفكري ـ عبر قنوات عديدة كان من أبرزها رسائل الإعلام الجماهيرية ـ في التأثير السلبي على قطاعات عريضة من المثقفين وصانعي القرار ممّن يمثلون النخبة القائدة في مجتمعاتنا العربية والإسلامية. وتمحورت تلك الحملات حول إبراز تفوق النموذج الحضاري الغربي وقدرته على انتشال المجتمعات

المتخلفة وتطويرها وتحديثها بوصفه «إنساني القيم» و«عالمي التوجّه».

إنّ مما لا ريب فيه ـ إذاً ـ ضرورة استثمار وسائل الإعلام الجماهيرية لمجابهة هذه التحديات الكبيرة وذلك في سبيل تكوين وعي جديد بالمعطيات الحضارية للإسلام وقدرتها على بناء نموذج حضاري. وإذا نظرنا إلى واقع الإعلام في مجتمعاتنا العربية والإسلامية سنجده لا يستجيب لهذا المطلب الحيوي، بل قد يعمل ـ في غالبه ـ على نقيض ذلك.

ولنتأمل هذا التشخيص الموفق لواقع الإعلام العربي الخليجي الذي يقدمه الدكتور تركي الحمد. إنه يلخص أعراض هذا الواقع فيما يلي:

١ ـ التركيز المفرط على «البروباجندا» (الدعاية) يؤدي إلى النفور.
٢ ـ التركيز المفرط على التقليد والقيم التقليدية والمثالية في جو من التداخل العشوائي للقيم والمعايير يؤدي إلى التطرف، أو هو أحد عوامل التطرف ضمن عوامل أخرى.
٣ ـ التعامل مع الحقائق المحيطة تعامل النعامة يؤدي إلى عدم الثقة.
٤ ـ عدم التعامل السليم والمدروس للمشاكل الاجتماعية يؤدي إلى غياب الإرشاد ومن ثم الإنسجام الثقافي في المجتمع.
٥ ـ لكل تلك الأسباب ينصرف الأفراد عن إعلامهم ويستقون المعلومة والقيمة والمعيار من وسائل إعلام أخرى مما يفاقم من مشكلة عدم التجانس الثقافي واتساع الهوة بين المجتمع والدولة[1].

ويمكن أن نوسع دائرة التشخيص لتشمل الإعلام العربي وليس الخليجي وحده فنضيف إلى ما ذكره الدكتور الحمد ملمحين آخرين من ملامح الواقع الإعلامي في العالم العربي. أولهما نقل وبث الأفكار والقيم

(١) المرجع السابق، الحلقة الثانية، جريدة «الشرق الأوسط» ٩٤/١٢/٢٤ ص ٢٩.

والتصورات والرؤى المنبثقة عن أسلوب الحياة في الغرب دون ضوابط محكمة أو معايير موزونة. وقد أسهم ذلك في «تغريب» قطاعات عريضة من الأجيال الجديدة من جهة، وفاقم ـ من جهة أخرى ـ من مشكلة «الانفصام الحضاري» لدى قطاعات أخرى ممّن لا يزال متعلقاً ببقايا القيم الأصيلة والتقليدية في مجتمعاتنا.

ويتمثل الملمح الآخر لواقع الإعلام العربي في ذلك التوظيف السيء للمواد الترفيهية في وسائل الإعلام المختلفة، وفي التلفزيون منها بصفة خاصة. لقد بالغ كثير من المحطات التلفزيونية والإذاعية ـ وبخاصة بعد انتشار القنوات الفضائية، واحتدام حدة المنافسة فيما بينها ـ في بث وترويج المواد الترفيهية المبتذلة والتي لا تحمل أية مضامين مقبولة. وتوسعت تلك المحطات في الاهتمام بأهل الفن والغناء والتمثيل والرقص ونحو ذلك حتى غدا هؤلاء هم «نجوم» المجتمع الذين تتعلق بهم قلوب الشباب من الجنسين. وقد أسهم هذا التوظيف السيء للمواد الترفيهية في «تسطيح» ثقافة الأجيال الجديدة وإفساد ذائقتها الفنية وإشغالها بالتفاهات التي تحشى بها عقولهم وقلوبهم باسم «الفن»!.

مهمة التنشئة الاجتماعية

أما المهمة الثانية من مهمات التأثير الإعلامي المنشود لتجلية معالم الحضارة الإسلامية وترسيخ معطياتها في نفوس الأفراد والجماعات فتتمثل في إسهام وسائل الإعلام الجماهيرية في تنشئة أفراد المجتمع ـ وبخاصة الأطفال والناشئة منهم ـ على القيم والسلوكيات التي أقام الإسلام عليها نموذجه الحضاري والتي تحدثنا على أبرزها في الصفحات السابقة.

وتحتل وسائل الإعلام الجماهيرية موقعاً متقدماً في قائمة المؤسسات الاجتماعية التي تقوم بعملية التطبيع الاجتماعي من خلال

«تنشئة الأفراد وتثقيفهم وتعليمهم السلوك المقبول اجتماعياً، إضافة إلى تلقينهم المعارف والعقائد التي تشكل هويتهم الثقافية والحضارية ويقوم عليها أمر دينهم» ولذلك «فإن تعرض الإنسان ـ منذ إدراكه إلى أن يموت ـ للرسائل الإعلامية سواء أكانت ترفيهية أم إخبارية يجعله ينشأ على القيم التي تشحن بها تلك الرسائل من حيث لا يشعر غالباً»[1].

وترتبط بعملية التنشئة الاجتماعية عبر وسائل الإعلام جملة من الاتجاهات والنظريات التي تؤكد على أن أهمية وسائل الإعلام لا تكمن في تأثيرها الفوري على جماهير معينة، بل يكمن «في تأثيرها غير المباشر، والحاذق على المدى الطويل بالنسبة للثقافة الإنسانية، وتأثيرها أيضاً على عملية تنظيم الحياة الاجتماعية[2].

ونشير إلى أهم تلك الاتجاهات مثل نظرية التطور الاجتماعي التي ترى أن مشاركة الفرد في نشاط المجتمع «تمده بمعرفة القواعد المقبولة للسلوك الاجتماعي، ويحدد له السلوك المنحرف الذي يجب أن يبتعد عنه». ومنها أيضاً نظرية التعلم أو الملاحظة الاجتماعية عن طريق النماذج التي تقدمها وسائل الإعلام «فالمُمَثِّل الذي يقوم بأدوار تصوّر أشخاصاً حقيقيين في وسائل الإعلام المرئية والمسموعة، أو الذي توصف تصرفاته في الصحافة المطبوعة يمكن أن يعتبر نموذجاً للآخرين بحيث يقلدونه». ومنها أيضاً نظرية التنظيم (أو الضبط) الاجتماعي التي ترى أن تنظيم المجتمع يتم عبر أربعة عناصر هي المعايير والأدوار، والرتبة، والعقوبات. وتقرر نظرية المعايير الثقافية أن «وسائل الإعلام، من خلال عروض منتقاة، ومن خلال التركيز على مواضيع معينة، تستطيع أن تخلق انطباعاً عاماً

(١) محمد الحضيف: مرجع سابق، ص ٣٣.

(٢) ملفين ل. ديفلير وساندرا بول ـ روكيتش: نظريات وسائل الإعلام، ترجمة كمال عبد الرؤوف (القاهرة: الدار الدولية للنشر والتوزيع، ١٩٩٣ م)، ص ٢٨٣.

لدى جمهورها بأن المعايير الثقافية (النماذج) المشتركة المتعلقة بالموضوعات المختارة يتم تركيبها أو تحديدها بطريقة معينة. ولما كان سلوك الفرد توجهه عادة هذه المعايير الثقافية (أو انطباعات الممثل بشأن المعيار أو النموذج المقبول) بالنسبة لموضوع معين أو اعتبار محدد، فإن وسائل الإعلام تساهم بطريقة غير مباشرة في التأثير على السلوك»[1].

إن هذه النظريات والاتجاهات الإعلامية وغيرها مما لم نتطرق إليه في هذه الورقة يمكن توظيفها في صياغة سياسة إعلامية عملية لاستخدام وسائل الإعلام الجماهيرية في عملية التنشئة الاجتماعية استخداماً أفضل لتحقيق الهدف الرئيسي وهو ترسيخ القيم والسلوكيات التي يقام عليها بنيان النموذج الحضاري الإسلامي.

ومن الأهمية بمكان أن نخص بالذكر هنا ـ وبالتحديد ـ المواد الإعلامية والبرامج الإذاعية والتلفزيونية الموجهة إلى فئات معينة في المجتمع مثل: الأطفال والشباب والنساء، إذ أن معظم التأثيرات الإعلامية في مجال التنشئة الإجتماعية تتعلق على نحو رئيسي بهذه الفئات بالتخصيص. ومن هنا فإنّ تقويم الأداء الإعلامي لتلك المواد الموجهة إلى هذه الفئات يعد أمراً بالغ الأهمية. ومن أسف أن نقول إنّ الاهتمام بالبرامج والمواد الموجهة إلى هذه الفئات في وسائل الإعلام الجماهيرية ضعيف ومحدود. كما أن كثيراً من المواد والبرامج الموجودة الآن لا ترقى في أهدافها ومضامينها وأساليب تقديمها إلى المستوى المنشود. وهذا أمر واضح وملحوظ ولا يحتاج منا إلى إيراد شواهد ودلائل عليه.

ويضاف إلى ذلك أن عناية أجهزة الإعلام في بلداننا ومؤسساتنا

---

(١) راجع: المرجع السابق، ص ٢٨٣ ـ ٣١٧.

الخاصة بالجانبين التعليمي والتدريبي ـ بمعناهما الواسع ـ تكاد لا تذكر، بالرغم من الحاجة الماسة إليهما في ظروف التحول والتغير التي تمر بها مجتمعاتنا في الوقت الراهن، حيث تدخل إليها أنماط جديدة من المعارف والمهارات التي تحتاج إلى تعلّم وتدريب. وبممارسة مهمة التعليم ـ بمعناه الواسع ـ «فإن وسائل الإعلام تستطيع أن تدخل كل منزل وتصل إلى كل فرد رجلاً كان أو امرأة، وكل منطقة نائية كانت أو قريبة. وبذلك يتحقق الهدف الإيجابي من الإعلام ووسائله بما يفوق المؤسسات الرسمية مثل المدارس والجامعات، إذ أن أداء مثل هذه المهمة يجعل من التعليم ممارسة جماهيرية أو اجتماعية واسعة النطاق وليس قاصراً على فئة دون أخرى. وذلك يساعد على تحقيق الانسجام الثقافي الملائم للمجتمع في مرحلته المعاشة»[1].

مهمة التبليغ والإتصال الإنساني

وأخيراً تتكامل مهمة التبليغ والإتصال الإنساني مع المهمتين السابقتين إذ أن المسلم المعاصر لا يعيش في هذا العالم وحده، كما أن رسالة الحضارة الإسلامية رسالة عالمية لا تقتصر على مجتمع دون آخر أو تنحصر في حيّز زماني أو مكاني معين. وقد خاطب الله رسول الكريم ﷺ بقوله: ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾.

كما أن الرسالة الإسلامية ـ وقيمها الحضارية الرئيسية ـ تتعرض في وقتنا الحاضر لتشويه متعمد من أعداء الإسلام، وتهتز صورتها في نفوس بعض أتباعها بسبب ذلك التشويه من جهة، وبسبب الغارة الجاهلة عليها من قبل المتطرفين ممن ينتمون إليها سواء في ذلك ما يقوم به المتدينون الغالون، أو العلمانيون المنسلخون.

---

(١) د. تركي الحمد: مرجع سابق ص ٢٩.

ويندرج تحت هذه المهمة ـ التي تتوجه رسائلها الإعلامية إلى المجتمعات غير الإسلامية بالدرجة الأولى ـ محوران رئيسيان هما: محور دفاعي يصدّ عن رسالة الإسلام الحضارية عاديات التشويه والتقبيح التي تقوم بها دوائر عديدة معادية للإسلام، ومحور تبليغي يستهدف تقديم صورة شاملة ومتكاملة للإسلام تبين للناس رسالته الحقيقية وقيمه الهادية ومثله الرفيعة. وتكون هذه الصورة بديلاً عن الصورة المشوهة التي رسمها المغرضون وأشاعتها وسائل الإعلام الغربية في العالم كله. وبذلك يتحقق للمسلمين أداء واجب التبليغ للأمم الأخرى وإبراز محاسن الإسلام وترغيب الآخرين في اعتناقه واتباع هديه، أو في تفهمه والاعتراف بمعطياته واحترام مكانته في أدنى الأحوال.

ومن هنا فإن الدعوات التي انطلقت في العديد من المؤتمرات واللقاءات الإسلامية بضرورة التفكير الجدي في إنشاء مؤسسات إعلامية إسلامية قادرة وقوية للقيام بمهمة الدفاع عن الإسلام وتبليغ رسالته وتصحيح صورته في العالم تكتسب أهمية كبيرة في أيامنا هذه، وبخاصة مع إقدام نخبة من رجال الأعمال والمؤسسات المالية على خوض غمار الاستثمار الإقتصادي في مجال الإعلام. ولذلك نكرر النداء بأهمية إيجاد قنوات اتصالية إسلامية في المجتمعات الغربية ـ على نحو خاص ـ أو موجهة إليها من مثل إنشاء قناة فضائية إسلامية باللغتين العربية والانجليزية. ومثل إنشاء مركز عالمي للإعلام الإسلامي في إحدى العواصم الأوربية تكون مهمته جمع المعلومات الإسلامية وتوفيرها بلغات مختلفة وإنتاج المواد الإعلامية المتنوعة ـ مقروءة ومسموعة ومرئية ـ لتوزيعها على نطاق واسع في مختلف أنحاء العالم.

إن قيام وسائل الإعلام الجماهيرية بتوظيف هذه المهمات الثلاث (تشكيل الوعي ـ التنشئة الاجتماعية ـ التبليغ والاتصال الانساني) لإبراز

المعطيات الحضارية للإسلام وترسيخها في النسيج النفسي والفكري والاجتماعي والانساني للمجتمع المسلم لا بد أن يُراعي الضوابط التالية:

أولاً : أن تستقي الرسائل الإعلامية المصاغة معلوماتها ومعاييرها التي يُراد إيصالها إلى الجمهور من مصادرها الموثوقة وأن تنقل عنها بأمانة ودقة حتى لا تشوب مصداقية تلك الرسائل الإعلامية أية شائبة.

ثانياً : أن تعتمد الرسائل الإعلامية الهادفة إلى إبراز تلك المعطيات منهجاً أصيلاً يتصف بالوسطية والاعتدال وينجو من مؤثرات الغلو والتشدد ويختار من الآراء والمواقف ما يعزز منحى التيسير والتبشير ويبتعد عن التعسير والتنفير.

ثالثاً : أن تبنى توجهات المواقف المراد تثبيتها على أسس سليمة تستند إلى أصول الاقناع الإعلامي المؤثر وليس على جعجعة العواطف المتشنجة أو الإثارة المفتعلة.

رابعاً : أن تصاغ الرسائل الإعلامية في قوالب فنية متنوعة ومشوقة وجذابة عوضاً من أن تصبّ في أنماط جامدة ومكرورة تفتقر إلى الجاذبية والتشويق، مع ضرورة مراعاة الضوابط الشرعية والاجتماعية العامة وعدم تجاوزها.

خامساً: أن تعتمد استراتيجية التأثير لهذه الرسائل الإعلامية على سياسة النفس الطويل لا القصير حتى تدرك أهدافها المرسومة وفق ما أكده خبراء الإعلام من مناسبة التأثير التراكمي طويل المدى لمثل هذا النوع من الرسائل الإعلامية.

ولا مناص من الإشارة في الختام إلى أن وسائل الإعلام الجماهرية لا يمكن ـ وحدها ـ أن تحقق أهداف النهوض الإسلامي وتنتشل الأمة من تخلفها وترتقي بها إلى مدارج التقدم الحضاري. فهذه الوسائل لا تنبع من

فراغ ولا تعمل في فراغ. ومن هنا نؤكد على أهمية أن تكون رسالة الإعلام جزءاً مكملاً من استراتيجية التغيير الحضاري الذي تتعاضد لتحقيق أهدافه جميع مؤسسات المجتمع والدولة بدءاً بالنظام السياسي الذي يمتلك قرار تفعيل الإرادة الشعبية وتوفير المناخ الملائم للتغيير والبناء، وانتهاء ببقية المؤسسات الاجتماعية التي ينبغي أن تضطلع بالمهمات الملقاة على عواتقها مثل النظام التعليمي وأجهزة التوجيه الديني والاجتماعي ودوائر التثقيف الفكري والسياسي والاجتماعي.